إسهامات علماء الجزائر في الحياة العلمية بالمغرب الاقصى خلال الفترة العثمانية

أ/ خنفار حبيب، جامعة تيارت

لا تتوقف عملية التأريخ لحركة العلماء على الجانب المادي أي الهجرة، فهي ليست مجرد حركة لطالبي العلم، بل هي تأريخ للحركة العلمية التي صاحبت انتقال وسفر العلماء الجزائريين عبر الأقطار الإسلامية والمراكز والمدارس العلمية الكبرى، وكانت آثارها أكثر اتساعا ووضوحا على الحياة الثقافية والعلمية.

لقد ساهم علماء الجزائر العثمانية في تنشيط الحركة العلمية في الكثير من البلاد الاسلامية، و كان نشاط الحياة الثقافية في هذه البلاد، قائما في جزء كبير منه على جهود العديد من العلماء الجزائريين الذين استقروا في مراكزها العلمية، ولم تقتصر إسهاماتهم الثقافية على التدريس و التأليف حيث تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء والطلبة، وبقيت مؤلفاتهم في العديد من فروع العلوم النقلية والعقلية، مرجعا اعتمد عليه الكثير من العلماء، بل تعدته إلى توليتهم خطة القضاء والخطابة والإمامة والإفتاء ونالوا الحظوة والجاه لدى السلطات السياسية في هذه البلاد.

كانت أول اتجاهات هذه الحركة العلمية هي المغرب ومراكزها العلمية ويأتي في المقدمة القرويين في فاس ثم مراكش وتطوان وتارودانت، ويرجع ذلك إلى العامل الجغرافي وقرب المغرب من الجزائر ثم عامل الوحدة التاريخية بين البلدين، فقد كانت مساحات شاسعة من البلدين تحت سلطة سياسية واحدة لفترات تاريخية طويلة، والاتحاد والتواصل التاريخي بين المغربين الأقصى والأوسط المتمثل في اتحاد السلطة الحاكمة وتعاقبها على المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط، أدى إلى بروز الصلة العلمية المشتركة بينهما.

يمكننا العثور على أسماء الكثير من الطلبة والعلماء الجزائريين الذين انتقلوا إلى المغرب لأخذ ونشر العلم في مراكزها العلمية، وساهموا بذلك في تنشيط الحياة الثقافية ، ولم يكن هذا التأثير العلمي والثقافي مقتصرا على الفترة العثمانية بل كان هذا التواصل مستمرا، فمثلا أول من أشاع "مختصر خليل" في المغرب وفاس بصفة خاصة، هو محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني الملقب بأبي عبد الله (ت 818هـ / 1415م)[1]، ومختصر خليل بن إسحاق سيطر على مختلف الدراسات الفقهية المالكية، فإذا حكمنا على أنواع الشروح و الحواشي التي وضعت حوله كدنا نقول بأنه يأتي في المقام الثالث بعد القرآن وصحيح البخاري[2]، وظل مختصر خليل الذي أشاعه هذا العالم الجزائري التلمساني المولد، ومنذ هذه الفترة مصدرا للفقه والتشريع في الجزائر والمغرب الأقصى ومراكزه العلمية خاصة القرويين في فاس.

شهدت الفترة بين أواخر القرن الخامس عشر (9هـ) والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي (10هـ)، هجرة عدد من العلماء الجزائريين الذين كان لهم دور فعَّال في تنشيط الحياة الثقافية في القرويين في فاس.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ على بن موسى بن على بن هارون أبو الحسن المطغري[3] ولد في مطغرة من أعمال تلمسان سنة 871هـ (1466م) ثم انتقل إلى فاس عام 891هـ ولازم ابن غازي تسع وعشرون سنة، فحصَّل عنه علما جمًا حتى قيل له: خزانة علم لكثرة الفنون عنده وأجازه في جميع ما يجوز له عام 906هـ ، وأخذ عن الونشريسي وغيرهم من العلماء، ثم أخذ عنه عبد الواحد الونشريسي و اليسيتني والزقاق وغيرهم، وكانت إفادته لا ساحل لها حتى أنه لا يتنفس إلا بفائدة، كان غاية في الحفظ، متواضعا منصفا كثير التلاوة.

و يبدوا من كتب التراجم أن المطغري التلمساني ساهم في تكوين وإجازة عدد كبير من الطلبة والعلماء نظرا للمدة التي درَّس فيها في القرويين حيث توفي سنة 951هـ (1544م)، فكانت مدة نشاطه العلمي في ملازمته لشيخه ابن غازي والمرحلة التي درَّس فيها تمتد من 891هـ إلى 951هـ (1486-1544م) أي حوالي ستون سنة من طلب العلم ونشره وبلغ صيته وشهرته الآفاق وحضر جنازته السلطان فمن دونه[4].

و كان للظروف والاضطرابات السياسية في الغرب الجزائري في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (16م)، المتمثلة في الفتنة التي وقعت بين علماء تلمسان والأتراك سنة 1560م[5]دور في هجرة عدد لا يستهان به من العلماء الكبار الذين اشتهروا ببراعتهم في عدة علوم واختصاصات علمية، فساهموا في نمو وتطور الحياة العلمية في المغرب الأقصى، بينما كانت انعكاسات هجرتهم هذه، كارثية على الحياة الثقافية والعلمية في الغرب الجزائري خاصة تلمسان، ومن بين علماء تلمسان الذين هاجروا في سنة 1560م:

- أحمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب العبادي التلمساني أبو العباس، عالم كبير من فقهاء المالكية من أهل تلمسان، وبها نشأ وتعلم ثم انتقل إلى فاس سنة 968هـ في جملة فقهاء بلده، فأكرمه الحكام بها واشتغل بالتدريس[6]، ولم تكن هجرة هذا العالم نهائية حيث رجع إلى تلمسان ثم استقر بمليانة وأخذ عنه عدد من العلماء المغاربة من أمثال محمد بن علي المشهور بابن عسكر الحسني الشفشاوني الذي وصفه بأنه « رجل من فحول العلماء ،كبير الهمة غزير العلم كريم السجية له نفس أبية، وهمة عالية وشجاعة وإقدام»[7]، وأمر له السلطان الغالب بألف مثقال ذهبا وقال (السلطان) «لا تسووه بأحد من الفقهاء وغيرهم فان همته كبيرة». ولما اشتغل بالتدريس قصده الطلبة من كل ناحية وعجب الناس من حسن عباراته وتحقيقه ونقله[8].

ومن العلماء الذين برعوا في تدريس القراءات في القرن السادس عشر الميلادي في فاس، هو العالم علي بن عيسى الراشدي(980هـ / 1572م)، أستاذ القراءات وقواعد اللغة والأدب من أهل تلمسان، استوطن مدينة فاس واستهل عمله فيها بتدريس الكراريس، وهي المنظومات الأولية المتعلقة بضبط القرآن ورسمه وتجويده، وكان بارعا في القراءات السبع، ولا عجب في ذلك فقد عرفت بعض المراكز في الجزائر بالحذق في هذه المادة، مثل زواوة حتى أنها كانت مقصد العلماء للإتقان هذا العلم.

وهناك أمثلة كثيرة عن علماء جاؤوا من المغرب، وقصدوا زواوة لتعلم القراءات السبع على شيوخها[9]، وعلي بن عيسى الراشدي كان من هؤلاء العلماء الذين برعوا في القراءات السبع فأفاد بها الكثير من الطلبة في فاس حيث أسند إليه كرسي الشاطبية الكبرى بمسجد الشرفاء، فدرسها زمنا طويلا وختمها مرات واستخدم شروحها وأخذها عنه المنجور[10]، فكان لهذا العالم دور كبير في تقريب علم القراءات إلى طلبة وعلماء فاس.

أما في علم الكلام فقد اشتهر في فاس العالم الجزائري التلمساني المولد والتكوين محمد بن عبد الرحمن بن جلال أبو عبد الله التلمساني (908-981هـ) (1502-1573م) كان إماما في علم الكلام، قَدِمَ إلى فاس في صدر أيام السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف سنة 958هـ/1551م[11] ونال حظوة كبرى عند السعديين فوَلَوْهُ خطط الفتوى والإمامة والخطابة والتدريس بجامع القرويين، وكانوا يستدعونه في جملة أعيان العلماء إلى مراكش ويصطحبونه معهم في بعض أسفارهم مثل صحبته السلطان عبد الله الغالب السعدي عام 980هـ إلى سوس، فقدمه إلى الإقراء بالجامع الكبير بتارودانت فأخذ عنه علمائها وطالت أيام رياسته العلمية بفاس حتى أسن وأثقله الهرم و انتفع الناس به، وبقي في تدريس الفقه والمنطق والعقائد والبيان والحديث والتفسير لأكثر من عشرين سنة وهي مدة إقامته في فاس إلى وفاته بها سنة 981هـ وأشهر تلاميذه أحمد المنجور[12].

إضافة إلى أحمد بن محمد بن محمد بن يحي المعروف بابن جيدة المديوني الجيزري الوهراني أبو العباس، كان يدرس علم الكلام بفاس، وكان من مناهل الفضل والدين والعلم المتين وأخذ العلم عن فقهاء وهران وتلمسان كالشيخ أبي عبد الله السنوسي والكفيف ابن مرزوق، وهو الذي كان يطالع له وأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الوهراني، وأخذ عنه العديد من الطلبة في فاس، وتخرج على يديه علماء كبار من أمثال أبو العباس المنجور والشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الخباز القصري وغيرهما، فساهم هذا العالم في تنشيط الحياة الثقافية في فاس بالمغرب وكانت وفاته ما بين 951-955هـ(1544-1548م) عن عمر يزيد عن السبعين سنة قضى أغلبها في بث العلم ونشره[13].

تتجلى أهمية هذين العالمين في تخصصهما في علم الكلام الذي كان يعتبر من أهم العلوم إن لم يكن أهمها، فقد عرفه مصطفى الرماصي في القرن الثاني عشر الهجري بمايلي: «علم الكلام أوثق العلوم دليلا وأوضحها سبيلا وأشرفها فوائدا وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق وصفاته ويصرف عنه ما لا يليق به و لا تقبله ذاته»[14]، وتفوَق فيه الجزائريون وكان هذين العالمين من أهم أساتذة هذا العلم في فاس، فتمكنوا خلال حياتهم العلمية الطويلة من تكوين وإجازة عدد كبير من الطلبة و العلماء في هذا العلم وغيره من العلوم، فكانت مساهمتهم كبيرة في مجال التدريس و التعليم في القرن السادس عشر الميلادي(10هـ)

لم يقتصر تواجد العلماء الجزائريين على حاضرة فاس ومركزها العلمي القرويين رغم أهميته، بل انتشروا في كامل المدن الكبرى في المغرب الأقصى وخاصة في العاصمة مراكش، التي استقر بها محمد شقرون بن هبة الله الوجديجي التلمساني[15](908-983هـ) (1502-1576م) الذي لُقِبَ «بمالك الصغير» في وقته، وهو من كبار فقهاء المالكية[16].

قدم أولا إلى حضرة فاس سنة967هـ (1559م)، فقلده السلطان الغالب بالله الفتوى ورياسة العلم بحضرة مراكش وسائر أقطار المغرب، وجعل له كرسيا في قصره كان يحضره السلطان و سائر الأمراء[17]، فكان له نفوذ كبير لدى السلطان و نال احترام وتقدير أعيان الدولة لبراعته وفصاحته، فقد لقبه ابن عسكر بـ« عالم الزمان وفارس المنابر وعروس الكراسي... طلق اللسان واسع العبارة واضح البيان منفسح الصدر كثير المعرفة.»[18].

وكان فقيها نوازليا، بارعا في علم الكلام والمنطق والبيان حيث أخذ عن الشيخ أبي عثمان المنوني علم الكلام، وهو بدوره أخذ عن الشيخ أبي عبد الله السنوسي[19] وعلامة الوقت أبي العباس ابن زكري[20]، واشتهر هذين العالمين بهذا العلم وسيطرة مؤلفات السنوسي في علم التوحيد سيطرة تامة على الدارسين طيلة العهد العثماني[21].

فلا عجب أن يكون شقرون بن هبة الله علامة في هذا العلم، إضافة إلى علوم أخرى تفوق فيها، وله شرح على رجز أبي إسحاق التلمساني في الفرائض، وأخذ عنه الكثير من العلماء والطلبة وساهم في تنشيط الحياة الثقافية في عاصمة الدولة السعدية ما بين 967 إلى 983 هـ (1559-1576م).

قضى هذه الفترة من حياته متنقلا بين المدن المغربية، فقد ذكر صاحب دوحة الناشر- ابن عسكر- أنه سأله عن أشياخه عندما لقيه بمكناسة، فقيَّد له أسمائهم وعلومهم، إلا أنه ضيع هذا التقييد، فلم يقتصر دوره في نشر العلم على مدينة واحدة، بل كان ينتقل عبر مدن المغرب، خاصة فاس ومراكش ومكناسة، وقد رافقه العالم أحمد بن محمد بن قاسم العقباني (ت 980هـ)(1571م) في هذه الرحلات

العلمية المحلية، وهو العالم الذي تصدر للتدريس بالقرويين بفاس وفقيه مالكي مشارك في عدة علوم، من أهل تلمسان[22].

أما **مدينة تطوان** في هذا القرن السادس عشر، فقد نزل بها أستاذ الفقه و المعقولات أبو القاسم بن سلطان القسنطيني (كان حيا 995هـ) (1586م) درس الفقه والمنطق والحساب وغيرها من العلوم العقلية في هذه المدينة، وله مؤلف « الانتصار للسنة و الرد على الطائفة الأندلسية» في مجلدين[23].

في حين الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن اأحمد التلمساني الذي يعرف بابن الوقَّاد، فأصله من تلمسان بها نشأ ثم انتقل منها بعد التحصيل إلى مدينة تارودانت بالمغرب حيث ولي القضاء[24]، ولكنه اصطدم في بداية الأمر ببعض الصعوبات لاستحكام العجمة في أَلْسِنَة السوسيين، فأضطر إلى مغادرتها إلى سجلماسة فعين قاضيا وخطيبا، ثم انتقل إلى مكناسة الزيتون ثم منها إلى فاس فولي الخطابة بجامع الأندلس وبعدها رجع إلى تارودانت و ولي بها الفتوى والخطابة وتصدر لنشر العلم فنفع الله به أمة من الناس، وكان السلطان المنصور يقول فيه "ليس عندنا أخطب من ابن الوقاد إلا أن الله اختاره لتارودانت وكان له وجاهة عند ملوك وقته[25]، وهو أول من قرأ الجامع الصحيح للبخاري بتارودانت قراءة ضبط وإتقان، وخطب بها ببراعة اللسان ،و أول من أحيا بها ليلة المولد باجتماع الناس في منزله وقراءة قصائد مدحه ﷺ[26]، فكان بالغ الاهتمام بعلم الحديث حيث له أبيات يحث فيها على دراسة وقراءة البخاري يقول فيها:

كتاب البخاري واظب على قراءته واروه في الشدائـــد

فهو المجرب تريـــــاقه لدفع سموم الأفاعي الأساود

وكان من الشيوخ الذين يذُّمون العلماء الذين يتقربون إلى السلطان، فهو القائل:

كُلْ التراب ولا تعمل لهم عملا فالشر أجمع في ذلك العمل[27]

فساهم هذا العالم الجزائري في تنمية منطقة تارودانت التي كان أغلب سكانها بربر لا يحسنون اللغة العربية، ويبدوا من رحيله عنها ثم عودته إليها، أنه تجاوز عائق اللغة الذي أجبره على المغادرة في البداية فكان الفضل إلى هذا العالم في نشر علم الحديث والبيان في بلاد السوس من المغرب ، وبعد وفاته سنة 1001هـ / 1592م خلفه ابنه أبو زيد عبد الرحمن في نشر علمه وهديه[28]، وأبرز مساهمات هذا العالم في منطقة تارودانت من السوس المغربي، إحياء السنة النبوية ولغة القرآن الكريم في منطقة كان أغلب سكانها من البربر الأمازيغ.

و آخر علماء القرن السادس عشر في فاس، هو ابن أحد أكبر علماء الجزائر؛ عبد الواحد بن أحمد بن يحي الونشريسي أبو محمد، حيث انتقل أبوه إلى فاس فارًا من ظلم سلطان تلمسان محمد بن أبي ثابت المعروف بالمتوكل سنة 874هـ، فنهبت داره وهدد في حياته[29]، فاستقر في فاس وهناك ولد إبنه عبد الواحد، الذي أكمل مسيرة أبيه في طلب العلم ونشره،[30] إضافة إلى التدريس، واشتهر بمواقفه الصارمة والثابتة على الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان آخر هذه المواقف سببا في قتله أو استشهاده حيث عندما سيطر السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ الشريف على المغرب، حاصر مدينة فاس، وفشل في دخولها، فقيل له لا يبايعك أهل هذه المدينة إلا إذا بايعك ابن الونشريسي، فبعث إليه وحاول إغراءه، فكان رد الشيخ عبد الواحد الونشريسي أن بيعة السلطان المريني المحاصر في رقبتي ولا يحل خلع ربقتها إلا بموجب شرعي ورفض مبايعة السلطان محمد الشيخ الشريف، فأمر هذا الأخير بعض عيونه ليأتوه بالشيخ عبد الواحد الونشريسي، فذهبوا إليه ووجدوه بجامع القرويين يدرس الجامع الصحيح للبخاري، فأنزلوه عن كرسيه و أخرجوه من المسجد وعند رفضه الذهاب معهم قتلوه فاستشهد لموقفه السياسي و الشرعي سنة 955هـ (1549م)[31].

ساهم عبد الواحد الونشريسي في تنشيط الحياة العلمية في فاس حيث ولي القضاء ثم الإفتاء بعد وفاة الشيخ ابن هارون، ومن جملة من أخذ عنه من العلماء أبو راشد اليدري، وأبو زكرياء السراج، وأبو زيد السلواني، وأبو العباس المنجور، وكان يحضر مجلسه الخاص كبار العلماء من أمثال الزقاق واليسيتني[32].

و أهم ما خلفه من كتب وتأليف نظم قواعد المذهب المسمى "النور المقتبس من قواعد مذهب بن أنس" لخص فيه "إيضاح المسالك" لوالده وزاد عليه زيادات رائقة، وكذلك شرحه على مختصر ابن الحاجب الفقهي في أربعة أسفار وشرحه المطول والعجيب على "الرسالة" لمحمد بن أبي زيد القيرواني، ونظم "تلخيص" ابن البنا في الحساب وله أزجال وموشحات[33].

لقد تركت شخصية هذا العالم بصماتها في الطلبة الذين تكونوا على يديه، حيث تفوق عدد منهم في عدة علوم، ولم يتوقف تأثيره فيهم على المستوى العلمي، بل تعداه إلى الموقف السياسي الثابت مع الحق، فقد قُتل الشيخ عبد الوهاب الزقاق أبو محمد، الذي خلف عبد الواحد الونشريسي في خطة القضاء والإفتاء في فاس، من طرف السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف السوسي لأسباب سياسية كذلك سنة 960هـ[34].

فقد تعددت ميادين إسهاماتهم الثقافية من التدريس و التأليف حيث تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء و الطلبة، وبقيت مؤلفاتهم في العديد من فروع العلوم النقلية والعقلية، مرجعا اعتمد

عليه الكثير من العلماء وطلبة العلم في المدارس التي انتشرت عبر المراكز العلمية في المدن الكبرى، بل تعدته إلى توليتهم خطة القضاء والخطابة والإمامة والإفتاء ونالوا الحظوة والجاه لدى السلطات السياسية في هذه البلاد.

---

1 - عمار هلال، **العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلاديين(3 / 14هـ)**، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2 ، 2010، ص 116. - ابن مريم، المصدر السابق، ص 264.

2 - أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، المرجع السابق، ص 71.

3 - **التنبكتي أحمد بابا:** نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة طرابلس، منشورات دار الكاتب ،2000.، ص 245. – **الحفناوي أبو القاسم محمد:** تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ج2 (الجزائر: دار موفم للنشر 1991)، ص 271.

4 - المصدر نفسه، ص 346.

5 - عمار بن خروف، المرجع السابق،ج2، ص112.

6 - نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، بيروت، ط2، ص65.

7 - محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، ط2، 1977، ص 118.

8 - المصدر نفسه، ص 119

9 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 21.

10 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص 72

11 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 123

12 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص ص77-78 - احمد بابا التنمبكتي، المصدر السابق، ص599. – احمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام في مدينة فاس**،دار المنصور للطباعة، 1973، ص ص 324-325.

13 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 136. - الحفناوي، المرجع السابق، ص 38. – عادل النويهض، المرجع السابق، ص348.

14 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج2، ص96.

15 - عادل النويهض، ص188. – ابن عسكر، ص 116. – احمد بابا التنمبكتي، ص 599. – احمد بن القاضي المكناسي، ص 325.

16 - عادل النويهض ،المرجع السابق، ص 188.

17 - ابن عسكر، ص 116.

18 - المصدر نفسه، ص 117.

19 - من مؤلفات السنوسي في علم التوحيد: "**العقيدة الصغرى**" و"**العقيدة الوسطى**" و"**العقيدة الكبرى**".

20 - كان معاصرا له وأهم مؤلفاته: "**محصل المقاصد به تعتبر العقائد**"

21 - أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، ج2،المرجع السابق، ص ص 98-99.

22 - ابن عسكر المصدر السابق، ص123. – احمد بابا التنمبكتي، المصدر السابق، ص 118. – عادل النويهض، المرجع السابق، ص236.

23 - عادل النويهض، المرجع السابق، ص 263.

24 - الحفناوي، المرجع السابق، ص 350.

25 - المرجع نفسه، ص 350.

26 - عادل النزيهض، المرجع السابق، 343.

27 - المرجع نفسه، ص 354.

28 - الحفناوي، المرجع السابق، ص 351.

29 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص 119.

30 - عادل النويهض، ص 345.

31 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص ص 53-54.

32 - محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، **سلوة الأنفاس محادثة الاكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس** ،ص 162.

33 - المصدر نفسه، ص 163.

34 - ابن عسكر، المصدر السابق، ص 55.